أين أنت

بقلم

صوفي عبدالله

دقت الساعة عشر دقات . وتململ مصطفى في رقدته فوق الحشية المصنوعة من قش الأرز . واحس لمطلبه ملقطة كتلك التي تصدر عن صوت الخشاب مستهلكه صنع منها اثاث عمى عليه الزمن في ليلة قائظة الحرارة ... وسرت في بدنه قشعريرة رغم ان الوقت كان منتصف اغسطس والحرارة المشبعة بالرطوبة تكاد ترهق الانفاس، وحاول ان يصبح عبيه المصنعين ولكن حلوقهما أبت ان تتفرج الا قليلا

عجبا ! اين هو ؟ ان الحجرة لدست حجرته ولم تقع عينه على هذه الاشياء من قبل ! ...

ومد يده في وهن شديد يتحسس الخشبة عن جانبه ، وانفرجت شفتاه على صوت عميق :

— امي ... اين انت ؟

ولم يتلق جوابا على ندائه .. ولو انها اجابته لما امكنه ان يسمعها . فقد احس انه يسبح من جديد ... يسبح في فضاء لانهائي . وقد تخفف من جسده وهو يحلق ويشرف على الكون من حوله ... وراعه منظر الحصرة والزهور والفاكهة تملأ الارض من تحته ...

هنا كان يحلم دائما ان يعيش .. طالما راوده هذا الاحساس في احلام اليقظة وهو يقلب صفحات احد الكتب المصورة التي اعطاها له عادل . عادل زميله في المدرسة ، وصديقه الطيب .. وكان يقول له كلما راى فرحه الغامر بها : ان عمه احضرها له من سويسرا .. عمي سويسرا يعيشون في ميلات جميلة،

وكل ميلا محاطه بالزهور والفواكه وكل مايتمناه النفس .. وعادل من اسرة كبيرة ، غنيه . يأكلون على الموائد المحمة . ويسكنون فى منزل كبير . كبير جدا . فيه حجرات كثيرة . ولديهم تليفزيون وراديو . وأعادل حجرة مستقلة حجرة خاصة به وحده ، مع انه صغير مثله . فى مثل سنه تماما . فى الحادية عشرة من عمره . وله فيها سرير فخم عريض يتسع لأربعة اشخاص . وربما اكثر .. من يدرى ؟ ودولاب . ومكتبة للزينة . ومكتب عليه قرص من البلور الاسبيك . وسجادة كبيرة . وعلى المكتب اباجورة . مضلا عن مصباح سقفى كالكرة يتدلى من سقف الحجرة كالذى يراه فى المحال العامة . ولديه العابا كثيرة . لديه بكاتو ومرد ودومينو وقطار سكه حديد سيارته ومحطاته ولديه مكتبة خاصة فى حجرته حافلة بالكتب المصورة التى احضرها له عمه من سويسرا ومن البلاد الأخرى الكثيرة التى يسافر اليها دائما . وعمه رجل طويل . عريض . احمر الوجه . جهورى الصوت كان مصطفى يخافه كخوفه من والده تماما .

وعاودته رجفة شديدة مصحوبة برعب واحس باسمائه تصطك ! ها هو والده بعينيه المرعتين يحاول ان ينتزعه من بين احضان أمه وامه المسكينة تصرخ باعلى صوتها . وتبكى وتولول . ولكن صوتها ضعيف مكتوم فهى خرساء . لا تستطيع الكلام . لن يسمعها احد وهى تستغيث ، وتحتو تحت قدميه كى يتركه لها ، لانها وحيدة وليس لها غيره فى الحياة ... لن اباه رجل قاس متوحش ... ها هو يرسلها بحذائه ثم يجذبه من ذراعه . وذراعه يكاد يخلع من جسمه ... ها هو يسحق فى وجهها ويتوعدها ويخرج مزمجرا صارخا وهو يسبها ويتوعدها بانه حينما يحضر فى المرة القادمة لن يكون بمفرده بل سيعود ومعه شرطى لياخذه منها بقوة القانون . واحس بامه الحبيبه امه المسكينة .. أمه الوحيدة .. احسها تحتضنه بين ذراعيها بقوة ، وتبكى بمرارة مترة طويلة بعد خروج والده . لقد خرج وصفق الباب وراءه وهو يرعى ويزبد بسيف لا حصر له ..

وتلوه مصطفى وفتح ذراعيه وضمها حول راس امه لقد استأثرت بذهنه الفتح لمعرفة كل شىء كلمة غريبة سمعها لاول مرة فى حياته بين سيل الشتائم المألوفة التى تدمقت بين فم ابيه !

ـ ما معنى هذه الكلمة يا امى ؟

وصمتت امه على الارض مقرور . لم تكن تتفاهم بالكلمات توصمته الى صدرها وراحت تمطره بالقبلات ودموعها تجرى على خديه ورقبته وتتحدر الى قميصه المشجر . القميص الذى اعطته له «الست شمائل» صاحبه البيت الذى يقطن فى حجرة من حجرات الدور الأرضى فيه .. وكان يلبسه مع البنطلون الجوخيه الأزرق البنطلون الجميل الذى اشترته له امه من الاوكازيون . وهو يرهو به امام الزملاء من تلاميذ المدرسة . انه مزين بازرار ذات خيوط خضراء . وجيوب من لماع وخلف . وله حزام تتدلى منه شراوه للزينة . وفوق الجيوب رخارف .

... وتساقطت الدموع من عينى مصطفى . لقد مزقه له والده وهو يحاول انتزاعه من بين احضان امه . تمزق جيب البنطلون .. وراح يبكى

على التطلون اكثر من بكائه على ذراعه « الملوح » سي آلام ذراعه وواسته امه . وخاطته له ، ولكنه لم يعد جديدا كما كان ... فيه رتق يبدو واضحا للعيان بذاريه مصطفى باستمرار ! يضع دائما يده عليه لكي يخفيه عن اعين التلاميذ حتى لا يشمتوا به ...

لقد سأله عادل يوما من اين احضره باخيره . اخبر عادل فقط ، اما الآخرون فلم تخبرهم حتى لا يلبسوا مثله . ويوم راى شهفا يلبس واحدا مثله مباشرة تملكته الحسرة ولكنه استطاع ان يخفي عنه ما اراه للتلاميذ واكد لهم ان تطلونه افضل . وصدقه التلاميذ . عادل على الاقل صدقه . رغم انه كان يعلم ان تطلون شهف افضل .. لقد وعد امه انه سيتفوق ويذهب الى سنويسرا ويأخذها معه ، وهناك سيكون في عيلا جميلة حولها زهور وفواكه وخضره لن تعرف والده مكانهما ، هناك سيعيشان في سعادة ويأكلان على مائدة فخمة مثل اهل عادل . ويحضر لها ملابس جميلة خضراء وحمراء وصفراء ، وتصبح اجمل امراه في العالم ..

واشارت له امه اشارات سريعة بديها مجتمعتين ، تريد ان سأله وعناها مصطفى :

— الى تتزوج يا مصطفى ؟

واقسم لها انه لن يتزوج بغيرها . سيتزوجها هي . البس والده قد طلقها لماذا اذن لا يتزوجها هو ؟ .

فقالت له بالاشارة والنظرة المنكرة الصاحكة في آن واحد :

— الان لاتتزوج امه .

وطمأنها قائلا بكل يقين .

— في سويسرا يتزوج الابناء من امهاتهم اذا شاءوا ... هدأت صدرها صائحة باصواتها المتورة ، فادرك انها سأله :

— من قال لك هذا ... ؟

فاجابها وهو يهز راسه هزة العليم .

— لقد قرات في الكتب . وكذلك اخبرني عم عادل وهو يزور سويسرا كثيرا ويخلط باهلها ويقصون عليه كل اخبارهم... الناس كلهم هناك يتزوجون امهاتهم ... !

وتضحك امه وتضمه الى صدرها وتقبله وتتمنى له ان يكبر ويتزوج ويسعد بزوجته وهي تربي له اولاده ... ويتهرها قائلا انه لن يتزوج من غيرها طوال حياته .

واحس مصطفى كانه يسبح في بركة من الماء : وسليقه التصاق الملابس بجسمه ، مهتم بالجلوس بيد انه لم يستطع ، احس بتقلل في جسمه ، ووهن في اعضائه ..

اين امه ؟! لماذا لا تاتي لقراءه ؟! اين ذهبت ؟! ابدا لم تتركه قط ينام بمفرده ! ابدا لم تبتعد عنه ! .. كانت تاتي اليه قبل ان يطلبها ... كانت اول ما يفتح عليه عينيه في الصباح . ولكن العتمة تملأ الحجرة . وليس من عادتها ان تترك الحجرة مظلمة في الليل ، فهي تعلم انه يخاف العتمة .. اين ذهب المصباح الساهر الذي كانت تعلقه في المسمار على الحائط امامه ؟! لقد كان يضيء كل شيء على نوره الضعيف في حجرتهما الصغيرة . الدولاب . والكنبة المرحاء ،

والمقعدة الصغيرة التي كان يكتب عليها واجباته المدرسية . وكرسيه الحبيران، والطبلية التي يأكلان عليها هو وأمه . نعم انهما يأكلان الآن على طبلية لأن والده ليس معهما كوالد عادل . ولكنه حينما يكبر ويأخذها الى سويسرا سيأكلان على مائدة مخملية . وسيحضر لها حجرة نوم كحجرة والدة عادل . انه لم يرها الا من بعيد ، وهو يمر الدهليز الى حجرة عادل . ولكنه لمح بها مرآة كبيرة جدا . مرآة تعطي معظم الحائط موضوعة فوق زجاج بلوري كبير عليه زجاجات من جميع الاحجام والاشكال . . . وأم عادل لها رائحة جميلة ، رائحة شهية . . . وسوف يحضر لأمه زجاجات كتلك التي عند أم عادل . ونيفا ايضا مثل أم عادل . وأمه حين تلبس وتعطر سوف تصبح أجمل من أم عادل . وسيعلمها كيف تمشي وتتحدث كأم عادل . . .

ووالده . رغما عنه ووالده ليعيش معهما . ولكنه لا يحبه لانه قاس . كان طول عمره يحلم بأن يعود اليهما . . وكانت أمه تقول له : سيأتي يوم يأخذك فيه والدك . وكان يبكي ويتعلق برقبتها ويتوسل اليها الا تتركه لوالده . . . ثم يهدأ فوق صدرها ويسألها :

— وكيف شكل والدي يا أمي ؟

كان يظن ان والده مثل والد عادل . طويل نحيف ، ابيض الوجه ، طيب لطيف . والد عادل كلما رآه يسأله عن دروسه . . فهو أول الفصل دائما ، وعادل الثاني من بعده . كان الفرق الذي بينه وبين عادل لا يقل عن عشر درجات ، واحيانا يزيد . . . ووالد عادل يحبه . . . وعادل احيانا يعطيه من ملابسه الداخلية ويقول له ووجهه يحمر لا ندري لماذا ؟

— خذ هذه يا مصطفى لاني اريدك ان تلبس مثلي . . .

انه يحب عادل ، ويحب ان يلبس مثله ومن ملابسه ايضا . . أما والده فينتظره بمختلف كل الاختلاف عن والد عادل . . . فهو قصير ، سمين ، داكن اللون ، له شعيرات عليطتان وعينان قاسيتان ، وشعر اسود جعد . وحينما رآه بعد سنتين لأول مرة في حياته لم يرتح عليه ولم يأخذه في حضنه كما تفعل والدته . . . ولم يسأله عن دروسه كما يفعل والد عادل . . . بل جلس يكلم والدته في خشونة ارعبته وجعلته يتجمد في مكانه من ركن الحجرة . ثم صاح بها واندفع يهجم عليه ، فجرى الى حضن أمه متمهلا على ذراعه يحاول انتزاعه بقسوة . . . واستماتت يدا أمه عليه ، ومرق له جيب بنطلونه الكحلي . . . وخرج وهو يتوعد بأنه عندما يحضر في المرة القادمة لن يكون بمفرده . سيكون معه شرطي ليأخذه بقوة القانون . لقد كرهه بعد هذه اللحظة ونسي الا يعود . . .

وأن مصطفى أبيا خائفا . ونسي أن يتبسم قليلا . . . وعاد ينادي بصوت واه :

— أمي . . . أين أنت ؟

وشعر بيد تتحسس جبينه . لابد انها يد أمه . وحاول ان يرفع يده ليمسك بها . وأراد أن يستدير على جنبه ليلتصق بجسد أمه ، ولكنه لم يستطع أن يرفع يده ، ولا أن يتحرك من مكانه أحس

يده بجانبه ككيس من الرمل ، أما جسمه مكتلة من الحجر راسخة على الارض .

لماذا لا ترد على ندائه ؟

ها هو يراها في ملابس راهبة جميلة تخطر كأم عادل ، وشعـــــوع برائحة عطرة .. تطير اليه من بعيد ولا تقترب منه ، وراح يشير اليها وينادیهـــا ولكن صوته احتبس في حلقه ولم يصـــل الى شفتيه ! .. لعلها لا تراه ؟ انها مرهوة بنفسها وبملابسها وجمالها تدهـــوتجيء كأنها تطير فوق الارض ؟ دون ان تعنى نفسها بالقاء نظرة عليه ! ..

أتكون قد نسيته ؟ لعلها نسيت ان لها ابنا اسمه مصطفى ؟! لماذا تتحاشى النظر اليه ؟! لماذا ؟! لماذا ؟!

وجمع كل قوته وصـــــاح بقـــدر ما اسعفته حنجرته !

ـــ امي ! الا تريدني ؟!

وبهذه صـــوته ، فتح عينيه ماذا يحيض من نور حانت بتسلل من فرجة باب يفتح على مهل ومن حذر شديد . واطل راس أشعث داكن يشبه جسم ضـــخم انحشر في فرجة الباب ، وامتدت قدم الى داخل الحجرة وانفرج الباب ليـــسمح للجسم بالدخـــول . وسمع مصطفى عينيه على سعتهما وقد اطل منهما ذعر شديد وهو يرى والده بشعره الاشعث ، وجسمه الضخم ، كأنما سيقتض عليه . وصـــرخ صرخة مروعـــة واغلق عينيه وانتـــابته رعشة !

ها هو قد عاد مرة اخـــرى . . عاد في هذه المرة ومعه الشرطي . . عاد لياخذه من امه بحكم القانون . . فالقانون يحتم عليه ان يذهب الى والده في سن التاسعة ، ولكنه تركه حتى بلغ الخامسة عشرة . تركه ينعم بحضـــن امه هاتين السنين ... لقد توعدها وها هو ينفذ وعيده ...

ورمح يديه في ذعر . وتعلـــق بعنق امه ... كانت ترتجف .. لم تتكلم ... البسته افضل ما عنده : قميصه المشجر وبنطلونه الأزرق المحـــلى بالرســـوم والازرار والمطواه . كان يحلمها عند ما يعود من المدرســـة وتصـــعمها ـــ بعد ان تطعمها حبيا ـــ في الدولاب ، وتلبسه جلبابه . وفي هذا العـــالم مكث ثلثة البطلون واصـــلحته له لانه كبر ... ووضـــعت له ملابســـه الباقية في بقجة امسكتها في يدها وامســـكته هو باليد الأخرى ... كان الرعب يملؤه وهـــو يشـــبث بيدها لا يستطيع النظر الى وجه والده .. وخرجت به وهي انزها خرج والده .. والشرطي .. ومشوا ... مشوا حتى وصلوا الى محطة الرمل ..

وهناك ... هناك عند اشارة المرور مد والده يده لياخذه منها وركعت امه على الارض واحتضـــنته وحملت تقبـــله في صمت في رأســـه ووجهه وعينيه وفمه وخديه وهو يتشبث بها .. يبـــكي في حرقة . وضاق والده بهذا العناق الذي ان ينتهي ، وانارته نظرات النـــاس المتجمعين في فضول ، فمد يده وانتزعه منها فصرخت بصوتها الاعجم .. وهي تشير بيديها تستعطفه ، ولكنه كان قد فقد صبره امام نظرات الاســـتياء التي يرشقه بها الناس فهوى بيده على راس مصطفى ليترك يد امه التي تشبثت به ، وصرخ مصطفى ، وولولت الام ، وخطا الاب خطوتين وهو يجره جـــرا ليعبرا الشـــارع بينما كان يتخلص من يد

يديه .. ومنحت اشارة المرور وظهر النور الاحمر ، وتوقف المارة لعبور السيارات،ولم يأبه والد مصطفى لرتل السيارات . ولم يأبه والد مصطفى لرتل عسكرى المرور وهو يأمر بالتوقف ... واخترق الشارع وهو يقرع مصطفى من الارض اقتراعا ويجرجره خلفه وهو يصرخ بأعلى صوته ويتوسل لأبه ان يرحمه .. والام تولول على الطوار والشرطى يمسكها من اللحاق به ... والسيارات تطلق ابواقها وسرق فى جنون ...

وهوى والده بكل قبضته على ام راسه . واسمعها برقصة قوية من حذائه الضخم فى وسط ظهره ... ولم يستطع مصطفى ان يصرخ لان الدم اسقط من انفه وهوت ركبتاه على الارض وقبل ان يسلمه دوامة العيون يسمع اصواتا من حوله تقول باستغاثة !

ـ ابوه ؟ مستحيل ! لا يمكن ان يكون اباه !

وشعر بنار تلسع وجهه . ثم احس بشىء رطب على جبهته ، ومن خلال اهدابه المتقرحة رأى والده يجسم الضخم يحتم بحانبه على الحشية ، ويمسك خرقة مبلل به سائل له رائحة الخل ... ثم وضعها على راسه وعمس الاخرى فى الطبق ... واحد بيده المحلول وراح يدهن كتفيه وذراعيه ، ثم تحول الى رجليه يدلكهما بقوة وحمل بالمحلول .. !

واطبق مصطفى اهدابه وهو يستبرىء اللمسة المترفقة ، انه ليس رهيبا جدا بعد كل شىء ...

وتمتم والحذر يرحف الى جسمه مرة اخرى :

ـ سآخذه معنا الى هنالك ... سنكون ثلاثتنا معا ...